الأثر الفارسى فى مسرح شوقى

الأستاذ الدكتور / بديع محمد جمعه

رئيس قسم اللغات الشرقية وآدابها
كلية الآداب ـ جامعة عين شمس

كانت العلاقة بين الحياتين الأدبيتين فى كل من مصر وايران خـــلال الفترة الواقعة بين أواخر القرن الماضى وأوائل القرن الحالى ـ وهى الفترة التى عاشها أمير الشـــعراء أحمد شوقى ـ علاقة وطيـــدة ، حيث كانت المطبوعات المصرية تصل الى ايران بمجرد صدورها فى مصر ، وقد لعبت هذه المطبوعات المصرية دورا كبيرا فى توجيه دفة الثقافة لدى أدباء ايران كما اعترف بذلك ملك الشعراء محمد تقى بهار · بل ان بعض هذه المطبوعات المصرية كانت تترجم الىاللغة الفارسية فى عام صدورها، وخير مثال علىذلك كتابا قاسم أمين : تحرير المرأة ، والمرأة الجديدة حيث قام يوسف اعتصامى والد الشاعرة الايرانية الشهيرة پروين اعتصامى بترجمتهـا الى اللغـة الفارسية بين عامى ١٩٠١ و ١٩٠٢ م (١) ·

والى جانب وصول الصحف والمطبـــوعات المصرية الى ايران ، فان بعض الصحف الايرانية كانت تطبع وتوزع فى مصر ، ومنها على ســـبيل المثال لا الحصر صحيفتا « ثريا » و « حكمت » والى جانب هذه الصحف وقد العديدون من أدباء ايران الى مصر لطبع مؤلفاتهم فى المطبـعـــة الأميرية ببولاق ، وذلك لتقدم الطباعة فى مصر عما كانت عليه الطباعة الحجرية فى كل من تبريز وطهران ، حتى قيل بأن أعداد الكتب الفارسية التى طبعت فى مصر خلال الحقبة الزمنية التى نتحدث عنها كانت تفوق أعداد الكتب التى طبعت فى مطابع ايران ذاتها · ولذا فان المكتبات العامة والخاصة فى مصر كانت تزخر بالعديد من هذه المطبوعات الفارسية سواء أكانت هذه المطبوعات

(*) بحث ألقى فى ملتقى المقارنين العرب الاول الذى عقد فى جامعة عنـــابة بالجزائر فى الفترة الواقعة ما بين ٨ ـ ١٢ يوليه ١٩٨٤ . والذى دعا الى تكوين أول رابطة عربية للادب المقارن ·

متعلقة بكنوز الأدب الفارسى عبر عصوره المزدهرة ، أو كانت مطبـــوعات حديثة · ومن يزر دار الكتب المصرية أو مكتبة جامعة القاهرة يمكنه التأكد من صحة ما أقوله ·

ولكن هل كانت هذه الصلة الوثيقة بين الأدبين العـــربى فى مصر والفارسى فى ايران ذات أثر مباشر على أمير الشعراء أحمد شوقى ؟

لم يرد فى الأخبار التى رويت عن أمير الشعراء أحمد شوقى أنه كان على معرفة باللغة الفارسية ، وانما أكدت هذه الأخبار اجادته اللغة التركية قراءة وحديثا ، وأن مكتبته الخاصة كانت تضـــم الكثير من كنوز الأدب التركى · وعلى الرغم من أن الدليل يعوزنا لاثبات اجادة شوقى أو حتى معرفته السطحية باللغة الفارسية الا أن مسرحيات شـــوقى فيها من الأثر الفارسى ما يجعلنا نتتبعه ، علنا نجد بعد مزيد من الدرس هذه الصـــلة المفقودة ، سواء أكانت هذه الصلة مباشرة وأنه كان يقتنى بعض كنوز الأدب الفارسى ويقرأ فيها ، أو أنه قرأ الأدب الفارسى عن طريق الأدب التركى حيث كان شوقى باعتراف الجميع يقرأ فى كنوزه ومن المعروف أن الأدب التركى قد نشأ تحت رعاية الأدب الفارسى ·

واذا انتقلنا الى دراسة مسرحيات أمير الشعراء أحمد شوقى ، فاننا سنجد أكثر من مسرحية يظهر فيها كيف تأثر شوقى بالثقافة الفارسية ·

وأول هذه المسرحيات من حيث البعـــد الزمنى الذى تمثله أحداثها ، مسرحية « قمبيز » حيث أن اختيار الموضوع يلفت نظرنا دون جهد كبير الى أن شوقى لكى يكتب هذه المسرحية لابد وأن يدرس حـــالة ايران السياسية والاجتماعية فى الفترة التى عاشها قمبيز (٥٢٩ ـ ٥٢٢ ق·م) وقد وضحت معرفته بتاريخ ايران من خـــلال حديث شوقى عن عبادة النـــار وتقديس الايرانيين لأهورا مزدا ، فقد قال شوقى على لسان قمبيز ، وهو يوجه حديثه الى نتيتاس :

أنـا قمبيـــز بن كسرى أنا جبـــار الوجـــود
وأنا **النـــار** أصـــولى وبنـــو **النـــار** جـــدودى

ثم قال محدثا نفسه :

رباه ، ناراه ، ما الذى أجد
كأنما النـار فىّ تتقـد
يـا نـار كـونى لى اور مازد كـن عونى «٢»

كماربط شوقى بين اله الشمس فى مصر واله النار فى فارس ، حيث قال على لسان قمبيز :

سلام الشـمس من مصر سـلام النـار من فارس
على الملكـة نفـريت أو الملكـة نيتاتس (٢)

ومن الأحداث التاريخية التى أشار اليها شوقى ، اصابة قمبيز بداء الصرع مما جعله يفتك بأفراد أسرته ، حتى قيل بأنه قتل أخاه « برديس » الوريث الشرعى لوالدهما كوروش مؤسس الأسرة الهخامنشية ، بل انه قتل كل من شايعوا أخاه من أمراء وأميرات ، فقال وهو يتحـدث عن الضجة والضجيج الذى يعلو فى ساحة القصر :

الملكـة : أيها الحارس
الحارس : لبيـك
الملكـة : من يقتلون اليوم فى الساحة ؟
الحارس : أختَ الملك ؛ اتوسيا
الملكـة : أختُ الملك ؟
الحارس : أجـل هيـا
اتهمت ببرديا
تـتى : من بـرديا ؟
الملكـة : أخو الملك ! يقطع فى الساحة رأس برديا
يا أسـفا عاوده جنونه «٤»

كما أشار شوقى الى أن ذهاب قمبيز الى مصر كان ذهابا بلا عودة ، حيث ثار الناس ضد قمبيز بعد أن لحقت به الهزائم فى النـوبة وبرقة ، فنصبوا مكانه دارا الأكبر ، وقد ذكر شوقى ذلك على لسان الملكة المصرية الأصل وهى توجه الحديث الى قمبير :

وأخشى أن يقول الناس زوجى غداة ذهابه نسى الايابا «٥»

والى جانب هذه الأحداث التاريخية ، أفاد شوقى من قصة وردت فى كتاب سياستنامة للوزير السلجوقى الشهير نظام الملك والمتوفى عام ٤٨٥ هـ ومؤداها أنه كلما نطق أنوشيروان العادل بكلمة (زه) (بمعنى : حسنا) سارع الخازن بدفع ألف درهم لمن تقال له هذه الكلمة . وهذا ما أنطق به أحمد شوقى قمبيز عندما استعرض جنود النوبة ، وهم يؤدون رقصة الحرب حيث قال :

زه يـــا جنـــود زه يـــا أســـود

فقال كبير النوب لخـازن الملك :

زه زه هـــات النقـــود

(فيدفع الخازن اليهم مالا ، فيأخذونه وينصرفون) «٦» .

ومن أثر الثقافة الفارسية فى المسرحية أيضا ، تشبيه شوقى للمعشوقة بالصنم ، وهذا تشبيه دارج فى الأدب الفارسى وبخاصة الأدب الصـــوفى منه ، واذا تصفحنا غزليات حافظ وجلال الدين الرومى والعطار وغيرهم فسنجد هذا التشبيه قد ورد فى أكثر من ألف غزلية لكل منهم ، أما فى الأدب العربى فلا وجود لهذا التشبيه ، لذا فعندما يذكر شوقى هذا التشبيه ، فانه يستحق الاهتمام والبحث عن الأصل الذى استقى منه شوقى هذا التشبيه ؛ وقد ورد هذا التشبيه فى حديث دار بين تاسو الذى كان يدعى عشقه لنفريت فى بداية المسرحية :

نفريت : تاســـو ها هنـــا ؟

تاســو : وهل أرى الا هنـــا ؟

أجـــول حـــول **صـــنمى** وحـــول هذى القـدم «٧»

واذا انتقلنا الى مسرحية « **عنترة** » فاننا نجد أمير الشعراء قـــد استخدم كذلك تشبيه المعشوقة بالصنم ، وذلك فى حوار ناجية مع احـــدى الفتيات حول عنترة :

احدى الفتيات :

ناجية اســـمعى ، انظرى ... من الفـتى يبـا ناجيـة ؟
ذاك الفـتى المهنـدم الـ ... ـحلو الرقيق الحاشـية

ناجية :

كيف ألـم تريـه قبـ ... ـل هذه فى الناحيـة ؟

الفتاة :

لله مـا أظـرفه

ناجية :

أحببتـه يـا غـاوية

خليـه فهـو مغـرم ... صـب بأخرى سـاليه

الفتاة :

من الفـتى ؟

ناجية :

مـن عـامر ... أبوه موفور النعـم
يقـال فى حظـاره ... ألفـان من حمـر النعم

الفتاة :

يحب من ؟ يعبـد من ؟ ... يا ليتنى كنـت الصنم

ناجية :

ان التى هـام بهـا ... بغـير عبـد لم تهـم

الفتاة :

عبـلة ؟

ناجية :

لـم لا ؟ انهـا اليـ ... ـوم حـديث للأمـم
صـيرها عنـترة ... نـارا على رأس علم«٨»

وجاء هذا التشبيه على لسان عنترة وهو يوجه حديثه الى معشوقته عبلة ، عندما هاجمه مارد فصاحت عبلة محذرة اياه منه ، وبهذا استطاع عنترة القضاء عليه ، وبعد ذلك قال لعبلة :

قـد كـان لابـد أن أراه ... لليث عينـان فى قفـاه
سيرى انظرى مات ورب الكعبة ... زمجرة الليث الهصور صعبة
بل اسمعى عبل ،اسمعىكلامى ... لولاك لم أنج من الحمـام
قد كنت أنت صنمى قدامى ... لك اتجـاهى وبك اهتمـامى
رأيت فى عينيك قـوس الرامى ... ويده فى جعبة السهام « ٩ »

كما تحدث أمير الشعراء أحمد شوقى عن جودة النسـيج الفارسى الموشى بالذهب ومن المعروف أن تفوق ايران فى هذه الصناعات النسيجية

وبخاصة الحرير ، قد أوجد طريقا تجاريا خاصا عرف باسم الحرير ، حيث يحمل التجار حرير ايران ويتجهون غربا حتى أوربا وكانت هذه الشـــهرة سببا فى محاولات الدول الاستعمارية كالبرتغال وهولندا وانجلترا وروسيا الاستحواذ على هذه التجارة منذ عصر الدولة الصفوية وما بعدها «١٠» فقال شوقى وهو يصف الهدايا التى جلبها صخر معه ، ومن بينها طرحة أحضرها لعبلة :

زهـــــير : وتلك عمـــرو ؟
عمـــــرو : طرحة مثل ذنابى الطـــاوس
كمثلها مـــا لمســـــت فى الوشى كف لامس
عمرمبتسما : هـــدية لعبلة ؟
صـــــخر : مجلوبة من فارس «١١»

كما أشار أحمد شوقى كذلك الى ما كانت تعيش فيه فارس من بحبوحة العيش كسكنى القصور والتحلى بالجواهر والفراء ، فعنـدما جـاء أهـل صخر يخطبون عبلة لابنهم ، دار حوار بينهم وبين والد عبلة :

مالـك :
أصيخو ا لى ، أصاحبكم غنى ؟ فعبلة طفـــلة تهـــوى الثـــراء
أحدهم :
سنسكنها القصـــور كبنت كسرى ونلبسها الجواهر والفراء «١٢»

وأشار شوقى كذلك الى ما كان يرتديه قادة الفرس من أقراط وحلى ، فقال يصف ثياب رستم القائد الفارسى الذى تقدم للاطاحة بعنترة ، فأرداه عنترة قتيلا :

عنترة : وثيابه ؟
داحس :
زرد الحـــــــديد وبـرنس ضـــاف على أعطافه ووشـــاح
قد حف ساعده السوار ورف فى أذنيه قرط اللؤلؤ اللمـــاح «١٢»

(ولعل هذا يذكرنا بشعر الأعشى وهو يصف جنود فارس فى معركة ذى قـــار) .

وحديثنا عن وصفه لثياب قواد الفرس وأقراطهم وحليهم يدفعنا للحديث عن اسهاب شوقى فى الحديث عن المعارك التى دارت بين عنترة ورستم القائد الفارسى ، ومحاولة عنترة قطع الطريق على القوافل التى تساق رشاً لكسرى حتى يكف أذاه عن القبائل العربية ومما قاله شوقى عن اعتراض عنترة لهذه القوافل ، وتوزيعها على أهل البيد سكان الخيام :

يا معشر البيد اسمعوا ... بشرى لكم أهل الخيم
بظهر عبس ووراء الـ ... ـحى ابل وغنم
ألفان أو ما نحوذا ... ك من كرائم النعم
كانت الى كسرى تساق ... والى أرض العجم«١٤»

ثم أشار شوقى الى السبب الذى كانت تساق من أجله هذه الابل الى كسرى ، وذلك فى حديث دار بين العجوز أم سرحان وعبلة ، بعد أن قتل عنترة سرحان المتعاون مع كسرى ضد قومه من العرب :

العجوز : وكنا نيمم أرض العراق ... لنجتازها
عبلة : ... نحو كسرى
العجوز : ... أجل
عبلة (غاضبة) :

لتعطوا الرشا وتنالوا المنى ... ويمنح سرحان بعض العمل
ويحكم فى البيد باسم الهمام ... وتحت ظبى فارس والأسل
ذليل بباب أذو شروان ... وعند الخيام العزيز البطل «١٥»

وينتهى الصراع بين عنترة وجيش كسرى بمقتل رستم على يد عنترة ، وقد ظن البعض أن القتيل عنترة فاذا به رستم ، ومما قاله شوقى :

واحد : ... من ذا الذى ذبح الغضنفر ؟
الجماعة : رستم ... فحل العراق وكبشه النطاح

آخر :
حطوه ، ننظر ، يا الهى، ما أرى ... (ويكشف القائل الرأس)
... ويل لهم أى الرؤس أطاحوا ؟
ماذاك عنترة ولكن رستم ... من يا ترى الجانى ؟ من السفاح؟

آخـــر :

من غير عنترة يجندل رســـتما قد كان بين الضـيغمين كفـاح
ما تنظرون الرأس فى الدم غارقا وعليه من كل الجهات جـراح ؟
لهفى على قســـماته وجبينـه عفت البشـاشة وانطفا المصباح

آخر (صائحا) :

يا لكســـرى ونـــواحى فارس لقتيـــل حـــول عبس دارس
فتك العبـــد بحُـــرٍ فارسى قائد الجحفـل أسوار العراق «١٦»

اذا كانت هذه الاشارات التى جاءت متفرقة بين ثنايا مسرحيتى قمبيز وعنترة ليست عند البعض كافية للحكم على أن شـــوقى قد قرأ عن تاريخ الفرس وأدبهم ولو فى غير مناهله الأصلية ثم تأثر بما قرأ فان ما فعـــله شوقى فى مسرحية مجنون ليلى لخير دليل على تأثره بالأدب الفارسى تأثرا واضحا جليا ٠

وقبل أن نبدأ فى سرد ألوان هذا التأثير ، يجب علينا أن نلقى نظرة سريعة على ما حظيت به أخبار هذين العاشقين فى الأدب الفارسى ٠ فاذا كانت هذهالأخبار قد ظلت فىحدود الأخبار المتفرقة بين صفحاتالكتب العربية وبخاصة كتاب الأغانى لأبى فرج الاصفهانى ، فان هذه الأخبار قد تحولت الى قصة ذات حبكة فنية فى الأدب الفارسى بفضل الشـــاعر الكبيـــر نظامى الكنجوى المتوفى عام ٥٩٥ هـ وقد أحدثت قصة نظامى هذه حركة نشطة لنظم هذهالأخبار حتى وصلت المنظومات الفارسية لقصة هذين العاشقينالى أربعين منظومة ، كان من أهمها بعد منظومة نظامى ، منظومات خسرو الدهلوى وعبد الرحمن الجامى وهاتفى ومكتبى الشيرازى ثم انتقل هذا الاهتمام الى الأدب التركى حيث حظى بأربع عشرة منظومة كانت فى معظمها واقعة تحت تأثير منظومة نظامى الكنجوى ٠

ومما يجدر الاشارة اليه أن بعض هذه المنظومات الفارسية والتركية قد وجدت فى مصر وليست من المستبعد أن يكون أمير الشعراء أحمد شوقى قد اطلع على بعضها ، اما فى الأصل الفارسى واما فى المنظومات التركيـة

ربيبة المنظومات الفارسية ، وعلى هذا يمكن القول بأن شوقى قد تأثر فى نظمه لهذه المسرحية بالمعالجة الفارسية ، وبخاصة بما جاء فى منظومة نظامى حتى ولو جاء هذا التأثير عن طريق غير مباشر ، وأعنى به المنظـــومات التركية ٠

وقبل أن أسوق الأدلة على صحة هذا الرأى يجب الاعتراف أولا بأن أحمد شوقى كان شديد الالتصاق بالروايات العربية كما جاءت فى كتاب الأغانى ، حتى اتهمه أستاذنا المرحوم الدكتور محمد مندور بأنه كان يتقيد فى مسرحيته بالكثير من التفاصيل التافهة أو الخرافية التى يرويها صاحب الأغانى «١٧» ٠

ولكن الى جانب هذا الالتصاق الشديد بالروايات العربية ، وكذلك ما أدخله من فن جديد على الأدب العربى ، وأعنى به الفن المسرحى ، فان أمير الشعراء ــ كما سبق أن ذكرت ــ قد تأثر بالمنظومات الفارسية وبخاصة منظومة نظامى الكنجوى ، وهذه هى الأدلة على صحة هذا الرأى :

أول دليل على تأثر شوقى بقصة نظامى ماثل فى الاتفاق حول المغزى الحقيقى عندهما ، واختلافه عما كان عليه هذا المغزى فى الروايات العربية القديمة ٠ فاذا كان المغزى فى روايات الأغانى يتمثل فى حب عذرى شبب صاحبه بمحبوبته ، فحرمت عليه ، فان المغزى فى المنظومات الفارسية أصبح التعبير عن الحب العرفانى الصوفى بكل ما يحدده هذا الحب الصوفى من رسوم وتقاليد وسمات ، حيث لم يعد قيس يتعلق بجمال ليلى الجسدى ويبغى وصالها ، بل أصبح حبه أسمى من ذلك ، انه الحب لذات الحب ، انه الحب للمحبوب الأزلى الذى أصبحت ليلى رمزا له ، وقد قال نظامى على لسان قيس وهو يشرح لصديقه هذا الحب :

« لا تظن أنى ثمل وأنى صريع الهوى ، لا اننى سيد مملكة العشق ، لقد تجردت من أسباب المادة وربقة الشهوات ، وتخلصت من أوشاب النفس، ورددت سوق الهوى كاسدة فالعشق الطاهر خلاصة الوجود ، والعشق نار وأنا لها عود ! ٠٠٠ (١٨) ٠

واذا انتقلنا الى مسرحية شوقى ، وجدنا أن الحب قد انتقل بدوره

من حب عذرى فى الروايات العربية الى حب صوفى فى المسرحية ، حيث لم يعد قيس يرى من الوجود كله الا المحبوب الأزلى المتمثل فى ليلى ، لأن كل ما عداه عدم فى عدم . وقد وضح هذا الموقف عنـــدما ذهب قيس فى صحبة ابن عوف الى حى ليلى ، فوقف الأهل ينتظـــرونه وهم مدججون بالسلاح ، فحاول ابن عوف تحذير قيس ، الا أن المحب لم يكن يرى من الحى غير ليلى ،وهذا موقف أصحاب « وحدة الشهود » حيث لا وجود الا للمحبوب ولا شهود الا لصاحب الشهود ومما قاله شوقى فى هذا الموقف :

ابن عوف : قيس ، انتبـــه ، قيـــس
قيـــس : من المنادى ؟
ابن عوف : الحى فى الســلاح سـدّ الوادى
وأنت قيس بعـــد حين غـــاد على خصـوم لـدد شـــــداد
فألق الرجال صـــاحى الفـــؤاد لا تلقهم مضـــيع الرشـــاد
قيـــس :
أتبصر يا بن عـــوف حى ليـــلى تدجج فى الســـلاح ولا تراها
فمالى أن أحقق غيـــر ليـــلى وان كثـر الســـواد لدى حماها
لقد ألقى هـــوى ليلى حجـــابا على عينىفلست أرى سواها(١٩)

ودليل ثان على تأثر أحمد شوقى بالمنظومات الفارسية ماثل فى معنى الجنون الذى لقب به قيس ، فالجنون فى المنظومات الفارسـية غيره فى الروايات العربية ، حيث كان الجنون فى الروايات العربية يعنى الخروج عن تصرف العقلاء ، لذا نعت قيس بهذا الجنون بعد أن ترك الحيـــاة مع أسرته وآثر العيش مع الظباء فى القفار والصحارى ، وما تبع ذلك من اتيان أفعال لا تتفق ومنطق العقل البشرى .

أما الجنون فى المنظومات الفارسية فهو جنون صوفى يعنى الخروج عن سلطان العقل رغبة فى الانتقال الى سلطان القلب ، وقد نعم قيس بلقب المجنون عند نظامى وهو مستقر بدار أبيه ، ولكن الحب كان قد تمكن من قلبه ، وقد وضح ذلك فى حديثه لأبيه عندما حاول الأب نصحه بأن يثوب الى رشده ، فاذا به يقول ما ترجمته : « .... يا من أنا وليد فضـــله ومن نصيحته حلية أذنى ومصباح روحى اننى أحاول حمل نفسى على العمل وفق نصائحك فلا أستطيع ، فلا تفرض على قيود العقل بعد أن تحـــرر منها ،

ولا تسخر منى لأننى رهين العشق فالعالم عندى لا يساوى بدون العشق ذرة ، وكل ما سوى العشق ليس له من ذاكرتى الا النسيان ٠٠٠٠ » (٢٠)٠

وهكذا كان لقب المجنون فى الأدب الفارسى أكثر تداولا من اسم قيس نفسه وهذا ما نراه فى مسرحية شوقى آثر أن يعنون المسرحية بـ « مجنون ليلى » ولم يجعل عنوانها قيس ليلى ككثير عزة ، بل انه أسقط قيسا وأبقى لقبـــــه ٠

ودليل ثالث على تأثر أحمد شوقى بالمنظومات الفارسية ، نجده واضحا فى مبدأ العزوبة الذى شمل قيسا وليلى ووردا ؛ وان كان قد تابع الروايات الغربية وكذلك الفارسية فى عروبة قيس ورفضه الزواج بعد أن منعت عنه ليـــلى ٠

أما عن عزوبة ليلى وعذريتها فاذا كانت الروايات العربية قد أشارت الى أن زوج ليلى قد باشر معها كل حقوقه الزوجيـــة ، فان المنظـــومات الفارسية ذكرت أن ليلى رفضت أن تمكن زوجها من نفسها ، حيث آثرت العزوبة ، وهذا موقف صوفى معروف ، ومما قالته لزوجها فى هذا الصدد: « أقسم بخالقى الذى صورنى على هذا الجمال ، لن تنال منى غرضا ، والا أرقت دمى بسيفك » ٠

واذا انتقلنا الى مسرحية شوقى نجـــده يركز على عـــــزوبة ليلى وعذريتها ، وهذا موقف لا نجده فى أى رواية عربية قديمة ، ولا شك أن أحمد شوقى قد أخذ هذه الفكرة عن المنظومات الفارسية أو التركية التى أجمعت كلها على عزوبة ليلى وقد صرح أحمد شوقى بعزوبة ليلى فى ذلك الحوار الذى دار بين ليلى وجاريتها عفراء :

ليـلى :

لم تعذب بالحب عـذراء قبلى ... كعذابى ولن تعذب بعـــــدى

ليـلى : ... هى عـذراء ؟ ربى أشـــــهد

ليـلى : أجـــل ... عذراء حتى يضمنى ركن لحدى

عفراء : والـــذى أنـت تحتـــه ؟

عفراء :

تحـــــت بعـــــل غير ذى جفـوة ولا مستبد
راعنى اللوم من جميع النواحى فتواريت فى مروءة ورد (٢١)

واذا كانت العزوبة متوقعة من قيس وليلى ، فلم يكن هذا متوقعا من زوجها الذى أصبح كما يقول نظامى ـ يكتفى من ليلى بالنظر الى جمالها ويكبر فيها الاخلاص فى الحب ، ولا يحاول ارغامها على ممارسة حقوقه الشرعية ، وهذا ما عبر عنه شوقى على لسان ورد ، حيث قال :

منـــذ حـــوت دارى ليـــ ـــلى ما خلوت من نـــدم
كـــانت اطـــافتى بهـــا كالوثـــنى بالصـــنم
وربمـــا جئت فـــرا شـــها فخانتـــنى القـــدم
كأنهـــا لى محـــرم وليس بيننـــا رحم (٢٢)

ومما قاله أيضا :

اذا جئتـــها لأنـــال الحقوق نهتنى قداستها أن أنالا (٢٣)

وموقف ورد هذا جديد كل الجدة على الروايات العـــربية ، لذا من المرجح أن شوقى قد أخذه عن المنظومات الفارسية أو ربيبتها التركية ، أخذه حتى تكتمل عناصر الحب الصوفى لدى الأبطال الثلاثة قيس وليلى وورد . وهكذا كانت النزعة الصوفية التى نلمسها فى مسرحية شـــوقى وافدة من الأدب الفارسى .

ودليل رابع على تأثر أحمد شوقى فى مسرحيته « مجنـــون ليلى » بمنظومة نظامى الفارسية ماثل فى خاتمة المسرحية ، فقد أشـــارت معظم الروايات العربية القديمة بأن نهاية القصة قد تمثلت فى ضعف شديد وهزال مضن عضال أصابت قيسا نتيجة لزهده فى الطعام ، ثم مالبث أن أسلم الروح وحيدا ، حتى عثر أحد شيوخ بنى مرة على جثته ميتا فى واد كثير الحجارة ، فاحتمله أهله وغسلوه وكفنوه ودفنوه . وكانت جنازته أحر

جنازة ، اذ لم تبق فتاة فى الحى الا وخرجت حاسرة الرأس مولولة ، كما اجتمع فتيان الحى يبكون عليه أحر بكاء ، ثم وفدت وفود القبائل معزية مواسية ، وكان من بين الوفود وفد من حى ليلى · وقد رأس الوفد والدها ، وكان أشد المعزين جزعا وبكاء ، وهو يقول : « ما علمنا أن الأمر يبلغ كل هذا ، ولكننى كنت امرءا عربيا أخاف من العار وقبح الأحدوثة ما يخافه مثلى ، وهكذا زوجتها وخرجت عن يدى ، ولو علمت أن أمره يجرى على هذا ما أخرجتها عن يده ، ولاحتملت ما كان على فى ذلك » ·

أما خاتمة القصة كما جاءت فى منظومة ليلى والمجنون الفارسية لنظامى الكنجوى ، فتتمثل فى وفاة زوج ليلى ثم احتجاب ليلى طيلة مدة الحداد كما تقضى بذلك التقاليد ، وقد كان هذا الاحتجاب حائلا دون لقاء قيس مما عجل باعتلال صحتها ، وعندما دنا موعد رحيلها طلبت من أمها أن تخبر قيسا بعد أن تلفظ أنفاسها : « بأنها أخلصت فى عشقها له وقدمت روحها قربانا لهذا العشق ··· والآن وهى خلف حجب التراب تتألم حنينا اليه ، لذا فانها تقف فى الطريق ترقب مقدمه ، وستظل واقفة حتى يلحق بها · » وما أن علم قيس بوفاتها سارع نحو قبرها ، وظل يبكيها ويبلل قبرها بغزير دموعه حتى تخلص من ربقة الجسد ولحق بمعشوقته ، فدفن معها · وهكذا ناما بالحب الى يوم القيامة ، وبعدا عن طريق الملامة ·

وبمثل هذه الخاتمة الفارسية ، ختم أمير الشعراء أحمد شوقى مسرحيته ، حيث خص الفصل الخامس والأخير بالفاجعة ، بدأ الفصل الخامس بموت ليلى بعد معاناة مريرة وآلام مضنية، وبعد فترة خبر قيس، فلم يطق سماع الخبر وسقط مغشيا على قبرها ، وظل يبكيها حتى ذبل عوده وأسلم الروح ، وهكذا لحق بمحبوبته ، عله يظفر بها بعد أن حرمت عليه فى الدنيا · ومما قاله قيس وهى واقف على قبرها يبكيها ويتمنى اللحاق بها :

عرفت القبور بعرف الرياح ... ودل على نفسه الموضع
كثكلى تلمس قبر ابنها ... الى القبر من نفسها تدفع
هداها خيال ابنها فاهتدت ... وليلى الخيال الذى أتبع
لنا الله يا قلب ! ليلاك لا ... تجيب وليلاى ولا تسمع !
فجعنا بليلى ولم نك نحسب ... يا قلب أنّا بها نفجع

« ثم يقترب الى القبر باكيا فيكب بوجهه على حجر من أحجاره »

أعينىَّ هذا مكان البكاء ... وهـذا مسيلك يا أدمع
هنا جسم ليلى هنا رسمها ... هنا رمقى فى الثرى المودع
هنا من شبابى كتاب طواه ... وليس بنا شره البلقع
طريدَ الحياة ألا تستقر ... ألا تستريح ، ألا تهجع
بلى قد بلغت الى مفزع ... وهذا التراب هو المفزع(٢٤)

دليل خامس وأخير يثبت تأثر أحمد شوقى بالمعالجة الفارسية لقصة العاشقين ليلى وقيس ، وهذا الشاهد واضح فى بيان حياة العاشقين بعد الموت وأن مآلهما الجنة ، فقد قال نظامى ما ملخصه :

كان لقيس صاحب اسمه « زياد » رأى فى منامه بعد وفاة ليلى وقيس روضة مزدانة تكثر بها الأشجار الباسقة ، ووسط هذه الروضة ملكان مباركا السريرة سعيدا الجد ، وقد استويا على سرير أقيم على حافة نبع، وقد فرش السرير بالديباج كديباج الجنة فى جماله وقد ارتدى الملكان من رأسيهما حتى الأقدام ثيابا من نور ، وعلى أكفهما كئوس الخمر ٠ جلس الملكان يقص كل منهما على الآخر قصته ، آناً يضعان شفاههما على شفاه الكأس ، وآناً يتبادلان القبلات ، ووقف دونهما شيخ كهل يتعهدهما بالخدمة، وفى كل لحظة يرفع يده وينثر قطعا من الذهب على مفرقيهما ، فسأل زياد عن هذين الملكين ، فأجابه ذلك الشيخ المحنك بأنهما ليلى وقيس ، فقد حرما الراحة فى الدنيا ، لذا نالا مرادهما فى الآخرة ، وهكذا ينعم فى هذا العالم الأخروى كل من لم يطعم الهناء فى ذلك العالم الدنيوى !!

وبمثل هذا تحدث شوقى على لسان ابن ذريح فى آخر المسرحية ، حيث وضح ما تحظى به ليلى فى دار الخلود ، وكيف أطافت بها الملائكة ، حيث قال :

يا ليل ، قبرك ربوة الخلد ... نفح النعيم بها ثرى نجد
فى كل ناحية أرى ملكا ... يتنفسون تنفس الورد
لبسوا الجمان الرطب أجنحة ... وتناثروا كتناثر العقد
وتقابلوا فعلى تحيتهم ... مسك السلام وعنبر الرد

وكأن نجـــواهم وسبحتهم صوب الغمامة أو صدى الرعد
نفحات طيب ههنا وهنـــا ما للرياض بهن من عهد(٢٥)

وبعد كل هذه الشواهد التى تحفل بها مسرحية « مجنون ليلى » وكذلك ما سبقها من شواهد فى مسرحيتى قمبيز وعنترة لم يعد فى وســـعنا الا الاعتراف بأن أمير الشعراء أحمد شوقى قد وسع مضمار ثقافته ليضم الى جانب الثقافتين العربية والفرنسية ثقافة شرقية تركية وفارسية · واذا كانت ثقافته التركية أمر مسلم به ، فان احتمال معرفته بالثقافة الفارسية أمر وارد سواء أجاءت هذه الثقافة عن طريق المطبوعات الفارسية التى طبعت فى مصر ابان حياته ، أو جاءته عن طريق القراءة عن هذه الثقافة الفارسية من خلال المطبوعات التركية أو الترجمات الفرنسية · وهذا ما دفعنا الى القول بأن شوقى قد تأثر بالثقافة الفارسية وهو ينظم بعض مسرحياته ·

الهـــوامش

١ ـ بديع جمعة : دراسات فى الأدب المقارن ، ص : وما بعدها ، بيروت : ١٩٨٠ ·
٢ ـ أحمد شوقى : مسرحية قمبيز ص : ٧٣ الهيئة المصرية العـامة للكتاب ، القاهرة ١٩٨٢ ·
٣ ـ المرجع السابق : ص ٦١ ·
٤ ـ المرجع السابق : ص : ٥١ ·
٥ ـ المرجع السابق : ص : ٥٧ ·
٦ ـ نظام الملك : سياستنامه ، الفصل السادس والثلاثون ، وكذلك الترجمة العربية ص ١٦٩ ·
٧ ـ مسرحية قمبيز : ص : ٧ ·
٨ ـ مسرحية عنترة ، ص ١١ ، الهيئة العامة للكتاب · القاهرة ١٩٨٢ ·
٩ ـ المرجع السابق ، ص : ٧١ ·
١٠ ـ بديع جمعة : الشاه عباس الكبير · راجع الفصل الخامس · بيروت : ١٩٨٠ ·
١١ ـ مسرحية عنترة ، ص : ٥٣ ·
١٢ ـ المرجع السابق ، ص : ٤٣ ·

١٣ - المرجع السابق ص : ٨٢ .
١٤ - المرجع السابق ص : ٥٦ ، ٥٧ .
١٥ - المرجع السابق ص : ٥٩ .
١٦ - المرجع السابق ص : ٨٧ .
١٧ - محمد مندور : مسرحيات شوقى ص ٩٢ ، القاهرة ١٩٥٦ .
١٨ - راجع ملخص المنظومة الفارسية فى « دراسات فى الأدب المقارن » : لبديع جمعة ، ص ٣١٨ ، بيروت ١٩٨٠ .
١٩ - مسرحية « مجنون ليلى » ص : ٤٥ الهيئة العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٨٢ .
٢٠ - راجع ملخص المنظومة بكتاب دراسات فى الأدب المقارن ، ص ٣١٦ .
٢١ - مسرحية مجنون ليلى : ص : ١٠٠ ، ١٠١ .
٢٢ - المرجع السابق ، ص ٩١ .
٢٣ - المرجع السابق ، ص ٩٢ .
٢٤ - المرجع السابق ، ص : ١١٨ ، ١١٩ .
٢٥ - المرجع السابق ، ص ١٢٣ .

بديع جمعة

القاهرة فى ١٩٨٤/٦/١٥